قراءة في رواية "الموتشو" لحسن أوريد

الدكتور عبد العزيز آيت الشاري
المغرب

الملخص:

حاولت هذه الورقة البحثية أن تؤول بعض الأفكار التي وردت في رواية " لموتشو " للأديب والمفكر المغربي الكبير حسن أوريد، أولا لإعجابي بمتن الرواية الحكائي وبلغتها الرصينة التي تنم عن لعب عميق باللغة وفكرها وتاريخها، وإعجابي بشخصياتها التي تعيش وضعا صعبا على الرغم من كونه خياليا، لكن أن تجعل من الخيال واقعا معاشا هو ديدن الدكتور حسن أوريد الذي صير لنفسه قاعدة من القراء داخل المغرب وخارجه لا يستهان بها، ولذلك وجدت نفسي بعد قراءة هذه الرواية أوظف ثقافتي وقدرتي على التحليل للخطاب الإبداعي الذي يمزج بين الثقافة المغربية واليهودية ولكني لا أدعي لنفسي فضل السبق في بيان دلالات هذه الرواية، ولكن خبرتي في تأويل الأدب هو ما دفعني لهذه المحاولة أملي أن أوفق في ذلك ولو بخطى قليلة.

يسعى هذا العمل إلى قراءة وتحليل رواية " الموتشو " للمفكر والأديب المغربي حسن أوريد تحليلا لا يدعي لنفسه أنه سيحيط بكل جوانب الرواية من أزمنة وشخوص وأمكنة ورؤى للعالم وفق اتجاهات أسلوبية أو بنيوية أو سوسيولوجية أو غير ذلك وإنما هو تحليل أتى انطلاقا من كون صاحبه مولع بتفكيك رموز الرواية وأبعادها الدلالية والإديولوجية لما كانت الرواية الجنسَ الأدبي الأكثر تأثيرا في هذا العصر بعد أن تربع الشعر على ذلك في الأزمنة السالفة، وعليه فإن عدة الباحث في هذا التحليل هو متن الرواية نفسها وما تبوح به من معاني ضمنية وصريحة، وما راكمه من تجارب في تحليل النص الأدبي في شكله المدرسي أو الأكاديمي الصرف، ومن ثم الهدف الأساس الذي من أجله كتبت هذه الرواية الماتعة .

تتحدث الرواية عن بطل سماه الروائي أمين كوهين (الموتشو) وهو صحافي يشتغل في جريدة بمدينة الدار البيضاء، ولكنه طرد من العمل بسبب مقال غنى فيه خارج السرب، الشيء الذي أفضى به إلى العطل عن العمل واستقراره بشقة بمدينة الرباط، واقترانه بطبيبة تدعى نعيمة بلحاج بنت جنرال تنحدر من أسرة يهودية مكلفة بمعالجة صديقه الكبير بنيس الذي تربطه به علاقة قوية إلا أن الحادثة التي تعرض لها بنيس جعلته في غيبوبة ومات وأسرار كثيرة ماتت معه، تعلقه بالطبيبة ومغامراته معها خففت عنه ظروف العيش القاسية، وربطه علاقات بشخصيات يهودية جعلت منه بطلا حقيقيا وواقعيا من منظور الكاتب، وقد انتهى به المطاف بالعودة إلى مربط الفرس العاصمة العلمية بفاس واستقراره عند والدته.

الرواية كتبت بلغة رصينة ومشوقة تتضمن حبكة قوية تستدعي منا التحليل والتفكيك لأنها قاربت المجتمع المغربي والعربي عن كثب. وعليه يمكن طرح مجموعة من الأسئلة حول هذه الرواية من مثل : ما هي القيمة التي سيجنيها القارئ المغربي والعربي من هذه الرواية؟ من هو هذا الموتشو؟ هل له صور في الواقع المغربي؟ لماذا أقحم الكاتب الصراع العربي الاسرائيلي في متن الرواية؟ ما العلاقة التي تربط الكاتب بالقضية الفلسطينية واليهودية؟ بله اليهود المغاربة؟ ثم إلى ماذا يرمز الكتاب المتعدد في الرواية وهو غالبا يتحدث عن الهوية اليهودية؟ كلها أسئلة وغيرها تفرض نفسها على المتلقي الذي قارب الرواية وفهم مدلولاتها.

أولا: عتبات النص

1. دلالة العنوان:

يعتبر العنوان البوابة الرئيسة لولوج عوالم النص، وهو أول ما يلتقطه القارئ من خلال الغلاف الخارجي للكتاب، وقد حضي باهتمام بالغ من قبل النقاد قديما وحديثا ووقفوا عند دلالته وأهميته كثيرا، ذلك أنه يمكن اعتبار العنوان نصا قائما بذاته يحمل معاني ضمنية وصريحة، فهو لمحة دالة بتعبير القدامى، وعليه فهو ذو مقصدية موجهة للكتاب بأسره، يختاره الكاتب بعناية لأنه سيقترن باسمه وبفكره ومرجعيته الفكرية والسياسية والثقافية، المتلقي الحاذق هو من يؤوله ويوجهه وفق مقاربة نقدية وتأويلية.

على هذا الأساس يدفعنا عنوان الرواية " **الموتشو** " المكتوب بخط بارز وأسود، ودلالة الأسود في الثقافة المغربية وغيرها دلالة على سوء الحظ في الحياة، و " النحس " الذي يتبع صاحبه، وعليه فإن هذه الشخصية ستعرف حياة تعيسة وشاقة بكل المقاييس، والموتشو في التعبير المغربي يدل على الشخص المحتقر (بفتح القاف) أو الذي لا حظ له في الدنيا فهو اسم للتصغير الدال على التحقير، وهذا الاسم ستدور أحداث الرواية عليه كما سنرى.

2- غلاف الرواية:

الغلاف الخارجي للرواية أو أي مصنف علمي أو أدبي أو غيرهما يعد عتبة أساسية لاستحسان الكتاب والرغبة في اقتنائه وقراءته، أضف إلى ذلك أن الألوان واللوحة التشكيلية التي ترافق الغلاف تجعل القارئ الذي يمتلك خبرة في قراءة الصورة من الناحية السيميائية

يؤول عناصرها ويفكك مدلولاتها. على هذا الأساس يتكون غلاف رواية " الموتشو" الأول او الواجهة الأولى من لوحة تشكيلية رسم عليها وجه شخص يحمل أنفا طويلا أي أنه يدخل أنفه فيما لا يعنيه، وعينان جاحظتان للدلالة على تعاسته واستغرابه من رزقه وميمونه كما تشير إلى ذلك الثقافة المغربية، وشاربا أسود للدلالة على فحولته ورجولته المبالغ فيها أي أنه مقبل على لحظات قاسية في الحياة ولكنه يستطيع أن يتجاوزها بصبره وتحمله وشجاعته.

ثانيا : شخصيات الرواية بين واقعيتها ومتخيلها

إن الشخصية هي الركيزة الأساسية في كل عمل روائي فهي التي تحرك الأحداث والزمان والمكان، هي كائن من ورق المتلقي الحاذق هو الذي يبعث فيها الروح بتأويله واستكناه دلالاتها ورمزيتها داخل المتن الحكائي، إذ تحمل في طياتها رسائل وقيما ومبادئ تسعى إلى نشرها في المجتمعات التي تشترك في الفكر واللغة والثقافة، وعليه فإن الكاتب حسن أوريد قد عدد شخصياته ما بين رئيسية وثانوية، كلها ساهمت في إثراء العمل الأدبي وأدخلته في مصاف الابداع الذي مزج بين اللغة والشعر والفلسفة وعادات وتقاليد المغاربة.

1- الشخصيات الرئيسة:

أمين كوهين (الموتشو): صحافي في الثلاثين من عمره يقول الكاتب : " فتى في الثلاثين من عمره، يحمل محفظة من محطة القطار ميناء متسللا وسط السيارات ومنها إلى حيث مقر الجريدة التي يشتغل فيها بشارع الجيش الملكي "[1] يبدو من اسمه أنه يهودي الديانة، إلا أنه مغربي مثقف ينحدر من فاس العتيقة، اختار له الكاتب سنا يدل على الشباب والاقبال على الحياة بكل مشاكلها، واختار له مهنة صعبة المنال والدروب، أن تكون صحفيا معناه أنك مهدد لأنك تبحث عن الحقيقة، ومن يقول الحقيقة فهو في عداد الموتى كما يقول نيتشه، الناس كما يقول الفيلسوف نيتشه تحب من يخدرها بالأوهام والصحافة النزيهة لا مفر لها من قول الحقيقة، وهذا ما حدث لهذه الشخصية التي من حظها أنها فصلت عن العمل بسبب مقال أودى به إلى البطالة وبسبب شعاراته التي يرفعها في كتاباته " حرية – عدالة – كرامة"[2] وهو شعار حركة 20 فبراير المعروفة، ويدل ذلك على أن هذه الشخصية منغمسة في الأحداث المغربية وتظاهراتها، أمين كوهين (الموتشو) مولع بالقراءة والكتابة يقول المؤلف : " كان أمين يبين عن نهم معرفي، وشغف بالقراءة "[3]، والقراءة لا بد أنها تؤدي إلى الكتابة، وليست أية قراءة وإنما قراءة النصوص الجيدة، أوريد مثقف كبير ارتبط اسمه بالفكر والرواية والفلسفة وقراءة النصوص الجيدة الحمالة للثقافة واللغة الرصينة التي يخشى عليها من الضياع بتعبير الكاتب عبد الفتاح كيليطو، وبالتالي فالشخصية التي اختارها هي من جنسه ومن بنات أفكاره يدافع عنها بكل جرأة وحرية.

الموتشو أو أمين كوهين متشبع بروح الثقافة اليهودية لأنه اقترن بشخصيات يهودية ثم إنه هيأ رسالته حول اليهود يقول الكاتب: "هيأ رسالته عن اليهود الذين هجروا من الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة 1492"[4]، يتبين من خلال هذا الكلام أن الموتشو شخصية حقيقية بنكهة خيالية، باحت بكل ما تحمله من أفكار ورؤى كونية وإديولوجية محضة كان من المفترض أن تحصل على كرسي في الجامعة لكنه لم يوفق يقول الكاتب : " سعى أن ينخرط في التدريس بالجامعة ولم يوفق "[5]، يبدو إذن أن هذه الشخصية تواقة إلى الفكر ونقل الأفكار إلى الأجيال الشيء الذي لم يوفق فيه وبالتالي سعى أن يكون كائنا ورقيا أبدع الكاتب أوريد في رسمه وخلقه ووضع له مسارا حافلا بالمغامرات.

أول مغامرة للموتشو في ثنايا الرواية هو اقترانه بالطبيبة نعيمة بلحاج وهي كما وصفها الكاتب : "كانت حسبما يبدو من سنها في الأربعينيات، ذات عينين زرقاوين، وأنف دقيق..وكان مستخدمو مصلحة جراحة الأعصاب بالمستشفى يخصونها باحترام بين "[6]

مهنتها وسنها أكسباها هيبة خاصة وجمالها وحجابها أثارا الموتشو وفكر في عقد علاقة معها تنسيه مرارة العيش وقساوة العطل عن العمل، ثم إنها مشرفة على حالة صديقه بنيس، جعل من بنيس واسطة بينه وبين نعيمة بلحاج التي تخصه باستقبال ومعاملة خاصة الشيء الذي حرك مشاعره اتجاهها، لم يمنعه أسلوبه في الحياة ومعاقرة الخمر من الاقتران بنعيمة بلحاج كان يرى فيها سرا غامضا وجب انتهاك حرمته، في الحب تتلاشى المبادئ والديانة ألم يقض محمود درويش في قصف الإسرائليين عبر الشعر ولكنه لم يجد امرأة في فلسطين من غير ريتا ذات الأصل الاسرائيلي؟؟ وهذا ديدن أمين كوهين الذي سعى بكل ما يملكه من ثقافة وكاريزما وتجارب في الحياة إلى التقرب من الطبيبة بلحاج ومن ثم الاختلاء بها واكتشاف أسرار جسدها كما يحلو له وقد نجح في ذلك كما تشير إلى ذلك الرواية في كثير من مراحلها.

أمين كوهين رمز للصحافي النزيه الذي بحث عن ذاته من خلال الجدية في العمل وفضح الفساد أينما وجد، ولكنه بالمقابل رمز للمثقفين المتشردين الحكماء الذين يجدون ضالتهم في المعرفة والبحث عنها، حتى في أحلامه ظل متشبثا بالقضية الفلسطينية وبالهوية الاسلامية، وإن أظهر له اليهود الصداقة والوفاء.

نعيمة بلحاج : طبيبة وجراحة مغربية ذات الأصول اليهودية، عملت من خلال الرواية على إظهار الجدية في العمل والتفاني فيه، ولكنها تخفي في ثناياها أسرارا كثيرة الحب وحده والمتعة هو من كشف عن محبوئها، ترمز إلى كل المتحجبات اللواتي يتخفين وراء حجابهن ولكن بالمقابل لا يستطعن تحمل الشهوة والشبق والميل نحو الجنس الآخر، وهذا ما سعى الكاتب من خلال هذه الشخصية إلى سبر أغوار أصناف من البشر يعيشون حياة مليئة بالتناقضات الصارخة، ثم إن في سنها (الأربعينيات) دلالة على خوض غمار الحياة وخلق علاقات جدية وعابرة، لكن لماذا اختار الكاتب مهنة الطب من دون المهن؟ هل هناك نماذج أخرى في باقي المهن؟ لماذا اختار الحجاب رمزا لها؟ ولماذا الازدواجية في المعتقد؟.

با بوشعيب: لا يخلو حي في المجتمع المغربي من مثل هذه الشخصية بله في كل العمارات التي تعج بالساكنة، يتكسب من أناس العمارات يخدمهم ما أمكن ولكنه في المقابل يحرس كل صغيرة وكبيرة في العمارة ويشارك من فتح له المجال همومهم وأحزانهم وأفراحهم، هو ستيني يقول الكاتب: "رجل في الستينيات، جالسا قبالة العمارة على كرسي، يعتمر طاقية وينظر إلى السابلة.."[7]، هو شخصية رئيسة في الرواية ارتبط بالبطل يخدمه كلما شاء، ويرفع تقارير يومية عنه إلى مقدم الحي.

إستير كوهن: يهودية مغربية: "أنا يهودية .. مغربية أبا عن جد "[8]، كثيرة السفر، ربطت علاقة بالبطل أمين كوهين، رغم تفاوت في السن بينهما، ولكن معاقرة الخمر والعزلة هي من وحد العلاقة بينهما، لا تبخل عليه بالفكر والثقافة والأسرار سيما التي تتعلق بالصراع العربي الاسرائيلي، استقرت بالرباط عاصمة المغرب الادارية لتؤكد هويتها المغربية اليهودية حسب ما يزعم الكاتب.

رمزية الفضاء في رواية الموتشو:

يلعب الفضاء دورا هاما في بناء المعاني داخل العمل الروائي فهو الذي تتحرك فيه الشخصيات التي اختارها المؤلف لروايته، يقول ابن عربي : "كل مكان لا يؤنث لا يعول عليه " بمعنى أن المكان إن لم تكن له مكانة وقيمة لا يعول عليه ولا يستفيد منه الشخص شيئا، ولذلك يختار الروائي الأمكنة بعناية خاصة والتي ساهمت في تكوينه وشخصيته وعلاقاته السياسية والثقافية والاقتصادية، " فالفضاء في الرواية هو أوسع، وأشمل من المكان، إنه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في سيرورة الحكي سواء تلك التي تم تصويرها بشكل مباشر، أم تلك التي تدرك بالضرورة، وبطريقة ضمنية مع كل حركة حكائية "[9]. يتبين من خلال هذا

الكلام أن مفهوم الفضاء الروائي أعم وأشمل من مفهوم المكان إلا أن المعنى واحد يقصد به الفضاء الذي تتحرك فيه الشخصيات الورقية بكل حرية.

اختار الأديب حسن أوريد في روايته الموتشو مدينتي الرباط والدار البيضاء مكانا لعبت فيه الشخصيات أحداثها، فضلا عن أماكن أخرى في المغرب وإسرائيل، الرباط حيث يقطن أمين كوهين بطل الرواية في شقة " تتكون من مدخل يقوم مقام صالون، به كنبة وتلفزة ومكتب، وخزانة كتب غصت بالمؤلفات والمجلات، تطل نافذة الصالون على الزنقة.. الشقة في الحقيقة استوديو مما تتيحه إمكانات أمين المادية الهزيلة.."[10]، يجد أمين كوهين في هذه الشقة الصغيرة ضالته يستريح فيها كلما عصفت به رياح الشقاء والبؤس، ويستغل فضاءها للنوم والقراءة ومعاقرة الخمر مع صديقته إستير وبين الفينة والأخرى تحل نعيمة بلحاج عنده، يدل فضاء البيت على أن البطل يعيش عزلة وليست له أسرة تأويه ويأويها، يجد في علاقاته بالشخصيات الأخرى عائلته ومعارفه وأنسه، لكن تعلقه بفاس وبأسرته وخاصة والدته التي تتصل به كلما ضاقت به الحياة ظاهر في ثنايا الرواية.

تشكل الدار البيضاء العاصمة الاقتصادية للمملكة فضاء شاسعا وقعت فيها أحداث كثيرة في الرواية بها توجد الجريدة التي كان يشتغل فيها البطل أمين كوهين، وبها كان يرقد صديقه بنيس في المستشفى، وبها أيضا تقطن عشيقته نعيمة بلحاج، هذا الفضاء إذن أساسي في حياة البطل وفي حياة الأديب الذي اختاره للرواية، فهي مدينة للتناقضات الصارخة تتعايش فيها طبقات اجتماعية كثيرة تتصارع فيما بينها.

فضلا عن ذلك شكلت إسرائيل فضاء آخر ضمن فضاءات الرواية زارها البطل في الحلم ولكن أماكنها حقيقية تجانست في حياة الأديب وسخرها خياليا، السؤال الذي يطرح في هذا السياق لماذا كل هذا الاهتمام باليهود؟ لماذا أقحم كثيرا من الكتب والتي تتحدث جلها عن مأساة اليهود وتاريخهم وعلاقتهم بالعرب؟ ما علاقة إسرائيل بالمغرب بغض النظر عن اليهود المغاربة؟ كل هذه الأسئلة وغيرها متروكة للنقاش وحده الكاتب من سيجيب عنها ولا شك أنه أجاب عن جلها في لقاءاته الرسمية لمناقشة الرواية الشيقة.

خلاصة وتوصية:

إن رواية الموتشو للأديب المغربي حسن أوريد يمكن تصنيفها ضمن السرد المغربي والعربي الذي يستحق كل العناية والقراءة والتأويل، لأنها صدرت عن ذات تعرف خبايا السياسة والفكر والهوية (الأمازيغية والعربية واليهودية)، ثم إنها حاولت فهم طبقة مهمة في المغرب سعت إلى الرفع من هويتها وثقافتها وقيمتها داخل المجتمع المغربي والإسرائيلي، وبالتالي فدراسة شخصياتها وأزمنتها وفضاءاتها وحبكتها جدير بأن يسفر عن قراءة ثانية لهذه الرواية، فالنقد هو إبداع ثان حينما يوظفه ناقد حصيف ويتعامل مع أي جنس أدبي ولاسيما الرواية فإنه سيصل إلى نتائج وحقائق أدبية ومعرفية خاصة، بالنظر إلى الجنس الذي تناوله هذا الناقد أو ذاك.

هذه الرواية في الحقيقة كتبت بلغة رصينة تحتاج أحيانا إلى الرجوع إلى المعجم لفهم دلالاتها، وأحيانا ينزل الكاتب من قمة اللغة إلى الدارجة والعامية المغربية المتعددة لإيصال فكرة ما، لما للعامية من قوة الإبلاغ أحيانا، ولكن تبقى هذه الرواية مصدرا ومرجعا للمهتمين بالسرد المغربي وتأويله.

الهوامش:

[1] – الموتشو، حسن أوريد، ص 7.

[2] – نفسه، ص 11.

[3] – نفسه، ص 11.

[4] – الموتشو، حسن أوريد ص 11.

[5] – نفسه، ص 11.

[6] – نفسه، ص 18.

[7] – الموتشو، حسن أوريد، ص 24

[8] – الموتشو، حسن أوريد، ص 29.

[9] – حميد الحميداني: بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي) المركز الثقافي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1991ت، ص 64.

[10] – الموتشو، حسن أوريد، ص 25.